كتب بالعربية

حياة معلقة

عاطف أبو سيف

عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٤. ٤٠٧ صفحات.

الحياة معلقة هنا في غزة. كل شيء يتكرر، الموت يُعاد والولادة أيضاً، فتبدو هذه المدينة دائرة مغلقة بإحكام، بحيث لا يستطيع سكانها اختراقها. إنهم ببساطة عالقون ككثير من الفلسطينيين، يدورون في دوائر سياسية ونضالية فارغة. غزة العالقة في سجن كبير صنعه الاحتلال، يعيش أهلها في سجن صغير يديره قسم من الفلسطينيين أنفسهم.

تحت وطأة هذا الحصار تولد حكايات كثيرة. حكايات تمتد من الانتفاضة الأولى، إلى دخول السلطة إلى غزة، وصولاً إلى انتخابات ٢٠٠٦ وما تلاها، وتحمل تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية.

ولد نعيم بطل الرواية في سنة ١٩٤٨، وأُجبرت أسرته على الهجرة خشية القتل على يد الإسرائيليين، لتتشتت العائلة ما بين مخيمات الأردن والضفة ولبنان، بينما استقر ووالدته في أحد مخيمات غزة.

كبر نعيم في المخيم، وبعد زواجه أنجب ولدين وابنتين، غير أن العائلة تفرقت بسبب أوضاع الحياة الصعبة في غزة، فالابن البكر سالم سُجن في زنزانات الاحتلال وهو في العشرين من العمر، والبنت الكبرى سهى تزوجت وسافرت برفقة زوجها إلى السعودية، أمّا الابن الأصغر سليم الذي درس في جامعة بير زيت، فقرر إكمال دراسته في إيطاليا، ليبقى الوالد نعيم مع ابنته الصغرى يحلم بعائلته تجتمع مرة أُخرى.

يذكّرنا نعيم بأولئك الذين عاشوا ولا يزالون على أمل لمّ الشتات الفلسطيني، كأنه يقول إن الفلسطيني لا يحتاج إلاّ إلى معجزة. فالكاتب يشبّه عائلة نعيم وأحلام زوجته (التي توفيت) بحياة هانئة تجمع فيها أولادها حولها وتخطط معهم لمستقبلهم في فلسطين.

جسّد عاطف أبو سيف في روايته عالم غزة الذي لا نعرف عنه سوى القليل، ولسنا قادرين على الاقتراب منه بسبب الحصار.

في غزة يعيش الجميع حيوات معلقة مجهولة النهايات. فالنهايات، حين تغيب، تصير في حاجة إلى مؤلف يرسمها كي يقول، ربما، إننا لا نزال قادرين على أن نحلم.

قدّم أبو سيف في هذه الرواية شخصياته بخاصية مركّبة وحساسة، كما كانت اللغة عاملاً أساسياً في بناء هذه الصيغة. وحكاية نعيم تلخص حكايات كثيرين. فالرجل الذي كان يصنع ملصقات للأموات، وترهقه صور الشهداء وتبكيه وهو يُعدّها للطباعة، مات شهيداً

برصاص العدو. سقط أرضاً ليتحول هو أيضاً إلى ملصق يضاف إلى الأموات المعلّقين على الجدران في المخيم داخل غزة. وتتضارب الآراء بين ضرورة صنع بوستر للشهيد أو احترام رغبته في ألاّ يعلَّق على الجدران كي لا يُستغل موته مثلما استُغل موت كثيرين. وهنا، يعيش سليم ابن نعيم جدلاً حقيقياً مع نصر ابن خاله. يحاول سليم ابن نعيم تحقيق رغبة والده في عدم نشر صورته في المخيم، فهو يعرف أن والده كان يبكي بحرقة على الشهداء بينما تتحرك أنامله ببطء لتجهز البوستر.. كان يريد لوالده أن يموت بصمت كما نستحق أن نموت. ولم يكن يتخيل أن يُستعرض موت والده في المخيم، وأن تتحول حكايته إلى موت معتاد يتكرر وينتهي بصورة تذوب على جدار. طرح عاطف أبو سيف تساؤلاً عن مفهوم البطولة، وكيفية اكتمالها، وكيف تعبر الزمن، فقدم لنا سليم الشاب الفلسطيني المغترب الذي يعود إلى غزة ليبحث فيها عن أجوبة أرهقته هذه الأعوام كلها. يصيح سليم ويكسر روتين الشعارات، فنحن نحتاج أيضاً إلى أن نعيش كي تعيش البلد. كأن أبو سيف أراد لنا اكتشاف صوت جديد يؤكد رغبتنا في الحياة وبموت صامت يليق بنا.

"ليست البطولة أن تموت مجاناً، أن تموت بسبب خطأ وسوء تدبير، بل هي أن تعرف ماذا تفعل، وأن تفعله بطريقة سليمة حتى لو كلفك ذلك حياتك، وتحقق غايتك من ورائه. هنا يصبح للحياة قيمة، وتكون التضحية معقولة وضرورية. الناس في غزة ضحايا آلة القتل التي تعمل رصاصها في أجسادهم وتحصدهم بين وقت وآخر مثل سنابل في بيدر قمح تنهال تحت مقص آلة الحصاد." هذا الحوار بين سليم الذي اختار الدراسة ونصر الذي بقي عالقاً في سجن غزة، يلخص أسئلة الرواية ومقترباتها الجديدة. نلحظ رحلة سليم بعد موت والده ضائعاً ومتردداً بين البقاء في غزة أو مغادرتها، فتبدو حياته معلقة تماماً مثلما تبدو حيوات كثير من الفلسطينيين. هنا تعود يافا، المرأة التي أحبها، إلى الظهور من جديد في حياته بعدما اضطر إلى تركها سابقاً بسبب دراسته في الخارج، ويختبر معها الرغبة في الاستقرار محققاً حلم والده المتوفي حديثاً. الحب الذي يعود من جديد يتحرك في الرواية بطيئاً، كأنه يبحث عن طريقه وسط ذلك الركام كله والحطام النفسي والاجتماعي الذي تعيش فيه الشخصيات. ينتظر سليم حبيبته، ويلتقي بها، ويتحدث إليها مثلما كان يفعل قبل رحيله من غزة. يخبرها عن مخاوفه وعن صورة والده كما حفظها في ذاكرته. يشعر سليم مع يافا بأنه انتمى فجأة إلى عوالم جديدة تجسد له الأمل بالبقاء. أضاع في ارتحالاته السابقة ذاكرته المضخمة بالحكايات، وفي غزة وجد الحبيبة وطرح على نفسه سؤالاً إشكالياً آخر: "هل أرحل..أم أبقى؟" يعلم للحظات أن الحب قادر على مواجهة مرارة السجن، لكنه ينظر من ناحية ثانية إلى البعيد حيث البلاد الخضراء التي عاش فيها واختبر فيها لغة أُخرى، وعاش فيها الانفصام بين ذاكرته وواقعه. في الخارج فقدت الحكايات زخمها، أمّا هنا في غزة فالحكايات تتوالد كل يوم ويراها سليم، ويخاف

من أن تبتلعه غزة تماماً مثلما فعلت بكثيرين. يافا التي علّقت يوماً كل آمالها على سليم، عرفت بعد سفره أنها خسرت كثيراً، وأنه ببساطة فضّل الرحيل وهذا ما لم تنسه. لكنها أحبته، واقتنعت بعد عودته بأنه يريد الاستقرار على التلة في غزة والموت فيها احتراماً لرغبة والده. غير أن سليم كان يغرق طوال الوقت في شروده، كأن الأجوبة أفلتت منه. في السابق كان متأكداً من كل شيء، أمّا في غزة فشعر بأنه ببساطة لم يعد يملك جواباً. تقرر يافا لاحقاً الابتعاد عن سليم والمحافظة على مسافة بهدف حماية نفسها من مواجهة الألم جرّاء خوفها من سفره مرة ثانية. علاقات متداخلة ترسم في طياتها المرحلة التي وصل إليها الفلسطيني في غزة تحديداً، وفي بقاع الشتات كافة. تعرّض سليم للضرب والاستجواب من رجال السلطة المباشرة في غزة، وهم مثله فلسطينيون. سُجن وعُذّب وحُقق معه، ليكتشف بعد ذلك أن الوطن بات أكثر غربة من الغربة نفسها. وبينما كانت تتساقط ضربات المحقق والجلاد على سليم، كانت مرآة الكاتب تعكس لنا فظاعة ما حلّ بنا. بتنا كائنات يراقب بعضها بعضاً، كائنات قلقة وخائفة. كان سليم على علم بأنه تحت أيدي أناس يعرفهم، لا بل هم ضحية أُخرى من ضحايا الاحتلال. كان يود لو يخبئ رأسه في حضن والده بينما تعذّبه أيدي المحققين الفلسطينيين.

سليم في الرواية، يمثل شريحة الشباب الفلسطيني عامة، والغزّيّ خاصة، اللاهث وراء الهجرة على أمل تحقيق شيء من أحلامه في أوروبا وأميركا، والذي حين يعود يُلقى القبض عليه ويتعرض للتعذيب.

رحلة الخروج من غزة، أو من عنق الزجاجة، أخذت حيزها الذي تستحق بين قضايا كثيرة تطرق إليها أبو سيف في روايته، محاولاً رصد يوميات الغزّيين. لم يترك "صغيرة أو كبيرة" في هذه اليوميات، إلاّ تناولها من دون إقحام، وبمزج ذكي ولمّاح مع حكايات تاريخية من خلال شخصيات الرواية التي شاركت في مأتم نعيم. تُفتتح الرواية بجنازة "نعيم الورداني" صاحب المطبعة الوحيدة في المخيم، والذي قضى معظم عمره منذ الانتفاضة الأولى وهو يطبع "البوسترات" الخاصة بالشهداء. في الصباح حين همّ نعيم بفتح باب المطبعة أحس بوخز في جانبه الأيسر. وخز شديد وأليم رأى بعده دماً يسيح ويملأ يديه، لم يسمع نعيم صوت إطلاق رصاص أو تفجير قنابل، لكن رصاصة قناص استقرت في لحمه ومزقته، ففارق الحياة بعد لحظات. يمشي الجميع في جنازته لتنهمر حكاياتهم في سطور الرواية.

نعيم الذي ولد في الحرب ومات في الحرب، لم يعش كما ينبغي لإنسان عادي أن يعيش. فقد فرقته عن إخوته حرب، ثم فرقته الظروف عن أولاده، أمّا الرواية فرصدت تحولات الحياة في غزة، من دون إغفال مفاصل تاريخية أساسية في حياة الشعب الفلسطيني، من ثورة ١٩٣٦، والنكبة، والحروب المتعددة، وبينها حرب حزيران / يونيو التي انتهت باحتلال ما تبقّى من أرض فلسطينية، حتى قيام السلطة الفلسطينية عقب اتفاق أوسلو، وحقبة ما بعد الانقسام، وذلك بأسلوب سردي شيق يكشف للقارئ

العربي، وحتى لكثير من الفلسطينيين، العديد من تفاصيل الحياة المجهولة في غزة. كما عرّج الكاتب على جغرافيا وتاريخ تسعى إسرائيل لمحوهما منذ احتلال ١٩٤٨، عبر استرجاعات زمنية، ومفارقات سردية، وحكايات متداخلة ترسم بصورة مفصلة عالماً مدهشاً تتفاعل شخوصه وتتجادل وتصارع في إعادة تركيب لمفهوم الهوية، والبطولة، والحياة، وذلك بين دفّتَي رواية تبدأ بجنازة وتنتهي بجنازة، على الرغم ممّا بينهما من حيوات غنية. ومثلما تفتح رواية "حياة معلقة" بابها الأول على الموت، فإنها تغلق بابها الأخير على الموت أيضاً، وبين هذين البابين هناك حيوات أناس تتقاطع وتتشابك ليل نهار؛ حيوات ومصائر أناس يشتركون في المعاناة اليومية التي يعيشونها تحت الاحتلال الذي يذيقهم أصناف القهر والإذلال والقتل كافة.

في نهاية الرواية نودّع "الحاج خليل" في موت لا يشبه في رمزيته ودلالته موت نعيم صديقه وجاره في التلة إلى جوار المخيم. موت نعيم يبدو "طبيعياً" و"عادياً" لأنه حدث بسبب قناص مهمته القتل. لكن موت الحاج خليل يضع علامات استفهام ويترك غصة في حلق كل مَن عرف أسباب موته.

يتعرض الحاج خليل لضرب عنيف على يد شرطة السلطة الحاكمة في غزة في أثناء وقفة احتجاج دفاعاً عن التلة التي يسكن فيها بجوار آخرين قلائل. التلة التي قرر جشع وطمع بعض الجهات الغنية والمنتمية إلى جهاز السلطة، انتزاعها من أهلها وسكانها لبناء "مول" تجاري ومحلات تجارية أُخرى إلى جانب المول الكبير، ومن أجل تسويق فكرة المشروع غلّفه أصحابه ببناء أكبر مسجد ومخفر للشرطة للمحافظة على الأمن. حاول أصحاب المشروع إقناع سكان التلة بقبول مشروعهم وترك منازلهم في التلة وتعويضهم بأُخرى في مكان آخر.

وفي أثناء الوقفة دفاعاً عن حق بقاء أهل التلة في مساكنهم، سيتعرض الحاج خليل لضربة مؤذية وعنيفة تجعله يسقط ويفقد الوعي ليجد نفسه بعد ذلك راقداً في إحدى غرف المستشفى بين الحياة والموت. وفي أثناء هذا سينسى الناس قضية الدفاع عن التلة، وباتوا يتوافدون إلى زيارة الحاج خليل الذي صارت مفارقته للحياة مسألة وقت فقط كما يقول الأطباء. صار جسده مزاراً للنساء والرجال الذين راحوا يتناقلون كراماته المتمثلة في تلك الارتعاشة التي يبديها جسده المتشبث بالحياة وبالبقاء؛ ارتعاشة كأنها إشارة إلى مقاومة الموت. ومنهم مَن رأى شعاع نور يضيء من نافذة الغرفة، ومنهم مَن قال أنه أحس برعشة تسري في جسده حين اقترب من غرفة الحاج. آخرون قالوا "أنهم رأوا الحاج يسير في الهواء في وضح النهار من دون أن تلامس قدماه الأرض."

تخطت حكاية الشيخ خليل الفانتازيا والأسطورة أيضاً. أصبح الشيخ حالة لا تتكرر، والناس لا يتوقفون عن الحاجة إلى إعادة إخبار الحكاية. فعلاوة على العذاب الذي يولده هذا السجن، فإنه يستطيع أن يصنع أناس يعلّقون الألم على حبال الغيب، ويسلّمون أمرهم إلى ما ورائية الحياة وما تحمله من سحر خاص. الشيخ صار حكاية المخيم، إنه

الشيخ المبروك الذي أضفى على غزة مزيجاً من السحر الأسطوري والألم.

وبين هذين الموتين الواقعيين، هناك موت آخر رمزي يشبه في دلالته إلى حد ما موت الحاج خليل. يتعلق الأمر بالعميد صبحي. صبحي الذي تنقّل وهو يحمل بندقية الثورة بين عدة بلاد: فلسطين؛ لبنان؛ الأردن؛ تونس....قضى صبحي عمره يحلم بوطن حر ومستقل، لينتهي الأمر به فاقداً قدراته العقلية، ويجوب شوارع غزة وهو يصرخ عالياً: "اِصحي ياغزة اصحي."

صبحيَ الذي قام بتغيير شكله حين ترك لحيته تنمو، وحبس زوجته وابنته في البيت ومنعهما من الخروج من دون حجاب، مسايراً بذلك "الموضة" المنتشرة بين الناس، سيجد نفسه يقود رجال الأمن التابعين له لمواجهة احتجاج الناس، لا فرق بين السياسة وبين المال وبين الأمن. كلها مصالح. وفي أثناء المواجهة والهجوم على السكان سيشعر صبحي بوخز في ضميره عندما يرى صفوف الشباب والنساء والرجال الذين كان يوماً في صغره ينتمي إليهم ويسكن معهم. "لم يكن يفكر يوماً حين عاد إلى غزة أنه سيقمع الناس، وليست سنوات الغربة والقهر ونضاله كان من أجل هذا." العميد صبحي الذي اختار أن يظلّ يتسلل إلى بيت الشيخ خليل على الرغم من تطويق البيت برجال الأمن والذي هو نفسه واحداً منهم، يقول: "أنا صدقت كل شي.. صدقت كتير ولا إشي زبط."

"حياة معلقة" هي رواية نقد للأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية التي تسلكها السلطة الحاكمة في قطاع غزة، مع الإشارة بعمق وبنفاذ رؤية إلى التحولات التي تطرأ باستمرار على حياة الناس بحكم السيطرة والقهر والحصار، كأن الكاتب أراد لنا أن نعي الواقع الجديد. فالبطولة لم تعد هي البطولة نفسها، ولم يعد النضال هو النضال، صارت كل جماعة ترى أن ما تقوم به هو النضال. فتجارة الأنفاق وبناء المولات التجارية الكبرى من طرف "خميس" المنتمي إلى جهاز السلطة وأحد المليونيريين في القطاع صارا عملاً نضالياً، إذ لولاه لمات الناس من الحاجة، ولا مانع لديه من أن يستغل موقعه في السلطة وثروته الهائلة في مزيد من المكاسب، ولو تم ذلك بقهر الناس. فوفاة الحاج خليل هي في النهاية بسبب جشع خميس ومَن معه.

ترصد رواية "حياة معلقة" حياة مجتمع، حياة أناس يعيشون في كتلة واحدة، ويتقاسمون المحنة والعمر والأحلام والذكريات. فإذا كان نعيم الرجل الذي تشرد من يافا وقضى عمره يحلم بأن يلمّ أسرته على "طبلية الغداء" قد رحل من دون أن يتحقق حلمه، ومن دون أن يدّعي البطولة ويبحث عنها، فإن الحاج خليل رحل بغصة الأهل الذين استخدموا سلطتهم السياسية والمالية حين أرغموه بالوعيد ليكون إماماً جديداً في المسجد الكبير، وهو إذعان واعتراف بكل ما قاومه إلى جانب سكان المخيم قبل أيام فقط، وكاد يفقد حياته من أجله. نجد أيضاً "نصر"، الشاب الملتزم بالقضية وبالعمل في التنظيم كما تذكره الرواية، بأخلاق نظيفة والذي لم تغرّه الهجرة إلى الخارج على الرغم من اقتراحات نيفين ودعوته إلى الرحيل

إلى السويد. وفي مقابل نصر هناك "يورو" صبي المقهى الذي لم يتردد في الرحيل إلى إسبانيا مع "نتاليا".
إنها أحلام الفلسطيني التي تتجاوز حدود المكان. أناس علّقوا كل غدٍ على جدران شوارعهم، وحكوا وحدهم عن ألم السجن وغربته. العالم الخارجي لا يشبههم، ولا الداخل بات يشبههم أيضاً. هم حيوات معلّقة أعاد الكاتب تشريحها لنا، ووضعها على طاولة الأسئلة. فهل الفلسطينيون جميعاً يعيشون في سجون كبيرة؟ الشتات اختار سجن المخيم، والداخل سجن العدو، وغزة صارت سجناً بأسوار عالية وفي داخلها سجن صغير صنعه الفلسطينيون أنفسهم.

ميرا صيداوي
كاتبة فلسطينية

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

النكبة

نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود

١٩٤٧ – ١٩٤٩

(ثلاثة مجلدات)

تأليف: **عارف العارف**

إعداد وتقديم: **وليد الخالدي**

١٥٥٨ صفحة ٦٠ دولاراً